

٤٢ - المصريون المحدثون

شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الإنجليزي إدوارد ولهم بن

الأستاذ عدلى طاهر نور

تابع الفصل الثالث عشر - الوهموس

إن الضيافة فضيلة في الشرقيين تثير الإعجاب الحق للغاية . ويستحق المصريون من أجلها كل ثناء . ويطلق عادة على الزائر أو الضيف في مصر كلمة « مسافر » . وقل في مصر من يفكر في تنازل طعامه وفي بيته غريب دون أن يدعوه إلى مؤاكلته إلا إذا كان الذعر من طبقة دنيا فيدعى إلى مائدة الخدم . ويعتبر امتناع المسلم عن الأمر بإعداد المائدة في الوقت المعتاد لأن زائراً دخل عرضاً ، مخالفة فاضحة للأداب . ويتناول أفراد الطبقة الوسطى عشاءهم أحياناً أمام أبواب دارهم عند ما يعيشون منفردين ، فيدعون كل عابر جليل الهيئه لياً كل معهم . ويفعل هذا عادة أفراد الطبقة الدنيا . والاستضافة في المدن نادرة لأن فيها وكالات أو خانات يستطيع الغرباء المبيت فيها . كما أن الحصول على الطعام فيها أمر هين . أما في القرى فكثيراً ما يضيف المسافرون شيخ القرية أو غيره من السكان ؛ وفي المادة أن يقدم الضيف من الطبقتين العليا والوسطى عطية إلى خدم المضيف أو إلى المضيف نفسه . ولكن يندر أن تقبل عطية المضيف في البداية . والمسافر أن يستقرى ، بموجب السنة ، من يستطيع أن يقربه ثلاثة أيام . وتقدم لنا التوراة في قصة إبراهيم وإضافته الملائكة الثلاثة صورة كاملة للطريقة التي يستقبل بها الشيخ

البدوى الآن الوافدين على مخيمه . فهو يأمر زوجته أو نساءه بعمل الخبز في الحال ، ثم يذبح نجعة أو غيرها ويطبخها على حبل ، ثم يحضر لبناً أو أى طعام آخر مهيباً فيقدمهما لضيوفه مع الخبز واللحم الذي أعده . ويقف البدوى بين أحدى عظماء الضيوف أثناء تناولهم الطعام كما فعل إبراهيم في القصة المشار إليها . ويكاد أغلب البدو يؤثرون الضيف على أن يرضوا بالإساءة إلى ضيوفهم مدة الضيافة

كان من المعتاد أن ترى في القاهرة طوائف من « الطفيليين » الذين يستفيدون من ضيافة مواطنهم ، فيعيشون على التطفل . إلا أن هذه الطائفة تقص عددها أخيراً . وكان من المؤكد تقريباً أن يوجد بعض هؤلاء الأبطال حيث تولى وليمة ، ولا يمكن التخلص منهم إلا بنفحة من النقود . وهم يتجولون أيضاً في البلاد دون أن يملكوا فلساً واحداً ، فيتطفلون على المنازل الخاصة كلما احتاجوا إلى طعام ، ويسمعون إلى ذلك بمختلف الحيل . وحكى لي أن طفيليين عزموا على الذهاب إلى مولد السيد البدوى في طنطا ، وهي على مسيرة يومين ونصف يوم من القاهرة سافراً هيناً ، فسار الطفيليان الهوينى حتى بلغا قليب في نهاية اليوم الأول وتحميرا في الحصول على عشاء ، فذهب أحدهما إلى القاضي ، وبعد أن حيّاه قال : يا مولانا القاضي ... أنا في طريق من الشرقية إلى مصر ، ومعى رفيق في ذمتي لي خمسون كيساً يحملها معه ويرفض أن يعطيني إياها ، وأنا في حاجة إليها الآن .. فقال القاضي : أين رفيقك ؟ فأجاب المدعى : هنا في هذه المدينة . فأرسل القاضي من يحضر التهم ، وأمر في أثناء ذلك بإعداد عشاء طيب ، إذ كان يتوقع رسماً كبيراً في قضية كهذه ، وهذا ما كان يفعله قضاة الأرياف في مثل هذه الظروف . ودعا القاضي الخصمين إلى العشاء والمبيت قبل النظر في القضية . ونظرت الدعوى في الصباح ، فلم التهم بوجود الخصين كيساً معه وقال : إنه مستعد لردها لأنها تتبعه ، فهي ليست غير أكياس الورق التي يباع فيها البن ؛ ثم

حمل مسلم على تناول قطعة من لحم الخنزير . وقد تحدث مرة مع مسلم في موضوع الخنزير فقال إن الفرج شعب يفتري الناس عليه كثيراً ؛ فلا شك أن المعروف عنهم أنهم يأكلون الخنزير ، ولكن بعض المفتريين هنا يؤكدون أنهم لا يأكلون لحم هذا الحيوان النجس نجس ، بل يأكلون جلده وأحشائه والدم ذاته أيضاً . فلما اعترفت له بصدق التهمة انفجر يلعن الكفار ويدعو عليهم بالدرك الأسفل من النار

يدين أكثر القضاة الذين يبيعون اللحم إلى أهل القاهرة المسلمين باليهودية . وقد اشتكى منذ سنوات مضت أحد العلماء الكبار إلى الباشا من هذا الأمر والتس وقفه . وسمع بذلك عالم آخر فتبعه وألح أمام الباشا في أن هذا العمل لا يخالف الشرع . فقال المشتكى : قدم دليلك . فأجاب الآخر : دليلي قوله تعالى : « فكلوا مما ذكر اسم الله عليه » . فاستدعى حينئذ رئيس القضاة اليهود وسأله هل يقول شيئاً قبل ذبح الحيوان ؟ فأجاب : نعم . نحن نقول دائماً مثل المسلمين : باسم الله الله أكبر . ولا نذبح الحيوان إلا بحز نحره . فصرف المشتكى حينئذ

ذهب رجل منذ أيام قليلة إلى خباز ليشتري فطيرة ، فرآه يسحب من الفرن طبقاً به لحم خنزير كان يشويه لأفرنجى ، فاستدعى الرجل في الحال شرطياً من أقرب قسم لأنه يمتد أن من الممكن أن تكون الأشياء الأخرى لامست اللحم النجس فتلوث . وأزم الشرطى قيادة الخباز إلى الضابط . فلم يجزع الخباز واحتج بجهله أن اللحم كان خنزيراً . واعتبر الضابط الحادث مهما يستدعى رفعه إلى ديوان الباشا . فرأى رئيس الديوان أن الأمر خطير يصعب الحكم فيه فأرسل التهم إلى المحكمة . فاستفتى القاضي المفتى فأفتى أن كل طعام لا يكون نجساً في أصله تظهره النار مما يلونه . فيعتبر طاهراً أى طعام وجد في الفرن ولو لامس الخنزير .

واستقدم الباشا من أوروبا منذ مدة قصيرة لديوان حريمه طقماً من الحشايا والوسائد حشيت بشعر الخيل . ففتحت السيدات

قال : نحن طفيليان . فطردهما القاضي غاضباً
إن اعتدال المصريين في الطعام والشراب مثالى . فقلنا رأيت منذ قدومى الأول مصرياً في حالة سكر ما لم يكن عازفاً في سامر أو راقصة أو عاهرة من السفلة . ويبدى المصريون احتراماً عظيماً للخبز باعتباره سند الحياة^(١) . ولا يجوزون ألبنة التبذير في أصغر قطعة منه إذا استطاعوا تجنب ذلك . وكثيراً ما لاحظت بعضهم يرفع قطعة الخبز إذا سقطت عرضاً في الطريق إلى فمه وجهته ثلاث مرات ، ويفضلون وضعها على جنب لكي يأكلها كلب على أن يدوسها المارة . وقد روى لى كثيرون الحادث التالى الذى يدل على احترام المصريين للخبز إلى حد غير معقول ؛ ولكن ينبغي القول أن هذه الرواية يصعب تصديقها : كان خادمان يتناولان طعامهما جالسين لدى باب سيدهما عند ما أبصرا مملوكاً يتجه نحوهما راكباً في جمع من رجاله . فقام أحد الخادمين احتراماً للقادم العظيم ؛ فصاح القادم غاضباً : أيهما أحق بالاحترام : الخبز أم أنا ؟ ثم أشار بيده إلى المذنب إشارة معلومة دون أن ينتظر منه جواباً ، فضرب عنقه في الحال

يراعى المسلمون المصريون من الطبقتين العليا والوسطى النظافة بدقة . وتعتبر الطبقة الدنيا في مصر أكثر اعتناء بالنظافة من غيرها في أغلب البلدان الأخرى . ولعل المسلمين ما كانوا يهتمون بالنظافة إلى هذه الدرجة لو لم يأمر بها الدين . ويبدو مما سبق ذكره في الفصل التالى من هذا الكتاب أن الواجب ألا تحكم على المسلمين ، نظراً لنظافتهم ، من تركهم أطفالهم في حالة قذرة . ولا شك أن الوضوء أمر حكيم ؛ فالصحة لا تكون في البلاد الحارة إلا بالنظافة . ويحرص المصريون حرصاً خاصاً على تجنب كل ما قرر الدين قذارته ونجاسته ؛ فيمتنع المسلمون عن شرب النبيذ لعدة أسباب أحدها أنه نجس . واعتقد أنه ينذر

(١) ويطلقون على الخبز لفظ « عيش » ومنه الحياة

إحدى الوسائل ليتحققن من المادة التي تجعلها وثيرة على هذا الشكل اللطيف . فلما رأيتها من شعر الكلاب تقززن أشد التقزز وأصردن على طرح الديوان بأكله

واستخدم الباشا منذ سنوات قليلة رجلاً فرنسياً لتكرير السكر . فاستعمل هذا الأخير الدم لهذا الغرض . ومنذ ذلك اليوم قل من يجرؤ من المصريين على استهلاك السكر الذي يصنعه هذا الأفرنجى . فاضطر الباشا إلى تحريم استعمال الدم في مصانمه واستبدل به زلال البيض . وقد رأى بعض المصريين أن السكر الأوربي يفضل السكر المصرى فاستعملوا الأول على اعتبار أن ما كان طاهراً في الأصل يمكن أن يطهر مرة أخرى بعد تلوثه . ولكن مضطر إلى استعمال السكر المصرى غير المكرر في عمل الشراب لضيقه إذ أن البعض

يناقشني طويلاً في هذا الموضوع .

جرت العادة أن يصب المصريون على ملابسهم بعد غسلها ماءً نقياً ناطقين بالشهادتين^(١) . وقد ذكرت عند الكلام على الدين عادات أخرى في النظافة يراها المصريون أغلبها . ولكن المصريين بالرغم من هذه العادات والمبادئ في الطهارة وتعودهم الاستحمام لا يغيرون ملابسهم الداخلية كثيراً بقدر ما تفعل بعض الشعوب التي تعيش في أقصى الشمال والتي لا تحتاج إلى ذلك كثيراً ، ويذهب المصريون إلى الحمام مراراً في ملابس قذرة يلبسونها بمينها ثانية بعد استحمام تام .

(يتبع)

هذه طاهر نور

(١) ويعبرون عن ذلك بقولهم : إن فلاناً « شاهد الحواج » بدلاً من « غل الحواج وتشهد عليها »

إلى هواة المغناطيسية

وإلى الصائين بالاضطرابات العصبية

ترسل تعليمات مجانية من شرح طرق وتدرجات تعلمك كيف تتخلص من الخوف والوم والحجل والكآبة والوسواس ومن جميع الاضطرابات العصبية والعادات الضارة كشرب الدخان ومن الملل والآلام الجسدية وفي تقوية الذاكرة والإرادة ودراسة الفنون المغناطيسية لمن أراد احتراف التنويم المغناطيسى والحصول على دبلوم في هذا الفن اكتب إلى الأستاذ ألفريد توما ٧١٩ شارع الخليج المصرى بقمرة بمصر وارفق بطلبك ٣٠ ملياً طابع المصاريف فتعلمك التعليمات مجاناً .

مجلس محلى النخيلة

يعلن تأجير المجدية بين النخيلة والبدارى لمدة ثلاثة سنوات من ٢ يناير سنة ١٩٤٣ إلى أول يناير سنة ١٩٤٦ فمن له رغبة بحضور لديراف المجلس يوم الثلاثاء ٢٠ أكتوبر ١٩٤٣ لوضع عطائه والمجلس الحق في قبول أو رفض أى عطاء بدون إبداء الأسباب